على نار هادئة

على نار هادئة

فتح مروان قائمة الأشياء اللازمة للعيد وهو ذاهب لقبض أجور ستة أشهر متراكمة في ذمة الحكومة، ثم أغلقها مباشرة.

لقد عملت زوجته في هذه القائمة أكثر من أسبوع، تحذف وتضيف، تحذف وتضيف، تحذف وتضيف، تحذف وتحذف وتحذف... ومع ذلك، فقد ظلت طويلة مرعبة، ربما لن تكفيها أجور الستة أشهر، ولا حتى أجور سنة بكاملها. ولذلك فقد حاول أن ينساها أو يتناساها ولكن زوجته كانت له بالمرصاد.

وصل إلى الكوريدور الضيق في مديرية الكهرباء في الساعة الثامنة، لم يلحق أن يصل إلى ذلك الشباك اللعين رغم أنه خرج منذ الصباح الباكر ليكون أول الواصلين، فقد وصل قبله ثلاثون، أربعون واحدا من زملائه ووقفوا أمام الشباك متمسكين بقضبانه الحديدية وكأن خلفهم واديا سحيقا ربما يقعون إن هم أفلتوا تلك القضبان، راحوا يحدقون إلى الشباك ببأس ووجوم وكأنهم يحاولون حل مسألة رياضيات عويصة.

هو يعرف والجميع يعرف أن المحاسب صاحب الوجه النحاسي اللئيم، لا يجيء على عادة الموظفين عند الثامنة، بل إلى ما بعد العاشرة، وربما لن يأتي أبدًا هذا اليوم، وليس عندهم من يقين أن هذه الحكومة النصابة ستفي بوعودها أخيرًا، ولو لمرة، وتسدد ديونها لفقراء مثلهم، على الرغم من ذلك فقد أتوا مبكرين بما فيه الكفاية لأنهم لا يملكون أي خيار آخر.

راح الناس يتدفقون إلى الكوريدور.

كان يخشى أكثر ما يخشى من ورقة وحيدة ملعونة يلصقونها كل مرة، مكتوب عليها "تأجل قبض العمال المياومين"، بل كان مرعوبا من

شيء كهذا، لا يستطيع أن يتصور شيئا كهذا، أن يتصور بأنه لن يقبض نقوده، كفى! كفى! لقد مضى من ثمانية أشهر على طرده من عمله كعامل مياوم، هو وكثيرين غيره، طردًا تعسفيا لا يعلم سببه حتى الآن. ما هذه الحكومة؟! على الرغم من أن أجورهم أرخص أجور في العالم، فإنهم لا يدفعونها!! يجب أن يدفعوا ديونهم للناس، للفقراء، الويل لهم إن تأجل الدفع كما عي العادة! لا بد أن يدفعوا وإلا ستحل بهم كارثة، سيحرض زملاءه على القيام بمظاهرة سيصرخون ويشتمون ويكسرون كل شيء فهم لا يملكون شيئا يخسرونه. لعدة أيام لم يغادر مخيلته خبر المظاهرة الذي رآه في تلفزيون جيرانه، كان العمال يطالبون بزيادة الأجور وكان العمل المتظاهرون يرشقون رئيس وزارتهم بالبيض والبندورة وهو يدخل إلى البرلمان.

لم لا يفعلون ذلك وهم لديهم الحق كل الحق.

العيد يوم الغد. كيف سيمضي هذا العيد؟! لم يعد العيد عيد الفرح، إنه عيد الهم والغم له ولكل الفقراء، منذ أربعة أعيد لم يستطع أن يشتري لأولاده ولو ثوبا جديدا.

صار تدفق الناس المتواصل يدفع به صوب الشباك فتكاثف الهواء، وتركزت رائحة العرق وقل الأوكسيجين، فراح يحرك الهواء أمام منخاره ببطاقة الشخصية المهيأة في يده منذ أن خرج من بيته، وكأنه يحسب بأنه سيعطيها للمحاسب اللئيم منذ وصوله طلب من الواقفين قرب الشباك أن يفتحوا الشباك أن يفتحوه فلم يعد الوضع مطاقا، تصاعدت الأصوات الصارخة المطالبة بفتح الشبابيك:

- افتحوا الشبابيك!

- افتحوا الشبابيك!

حتى اضطر الواقفون قرب الشبابيك إلى الصراخ:

- الشبابيك مقفولة، مقفولة، كلها مقفولة!

صار المكان حارًّا والرائحة النتنة تبعث على الغثيان، صار مثل طنجرة موضوع فيها معكرونة ومتروكة على نار هادئة.

راح مروان ينفخ، كل نفخة تطبخ طبخة، حتى لم يعد قادرا على التنفس.

صار الشجار محتملا في أي لحظة، والوضع مهيئا لمثل ذلك، لا بد من حديث ودي مع أقرب الواقفين، وما أكثرهم، إنهم لصيقون، لصيقون وأقرب من المناخير، لا بد من شيء من اللباقة، لا بد من إشاعة جو من التسامح قبل أن يبتلي بشجار ما، حتى يسهل هذا هذا الانتظار الصعب، صار يحاور جاره، يواسي الواحد الآخر ويثرثران في أمور تافهة.

وانتقلت عدوى الحوار إلى الباقين حتى اشتعل كل المكان بأحاديث وفوضى، أحرقت الصمت وزادت من حرارة المكان واختناقه. بعد أقل من دقيقتين، توقف مروان وجاره عن الكلام لانهيار أدنى قدرة عندهما على الكلام، وما لبثت أن انطفأت فوضى الحوار من جديد وعاد التنفيخ أكثر مما كان.

ساد لغط قريب من شباك المحاسب، صارت الأصوات تطلب فتح طريق، لقد أغمي على أحدهم، صارت الكتلة البشرية تموج وتتحرك وكأن ملعقة ضخمة وهمية تحركها من الأعلى كما تحرك المعكرونة في الطنجرة، صارت الكتلة تموج وتتنافر وتتراص ويتغير وضع الكائنات داخلها وأماكنهم، وصاروا يصرخون عند الشباك لأن المغمى عليه متشبث بالقضبان ولا يرد أن يتركهما حتى بعد إغمائه، حتى أن أحدهم

طالب بإحضار كماشة أو بينسة، ولكنهم أخيرا استطاعوا بعد جهد جهيد أن يفكوا يديه ويخرجوه، كان الله في عونه.

عادت كومة المعكرونة إلى الامتلاء والاختناق من جديد، غير أنها صارت متجانسة أكثر، وحمل هذا التحريك العشوائي امرأة استقرت أمام مروان، سال مكياجها بقرف على وجهها، وصار يبذل مزيدا من الجهد حتى لا يلمسها، حاول بكل استطاعته، تنبه إلى أن هناك شيء من الدفع من الواقفين خلفه فنبههم مرتين ألا يدفعوه فأمامه سيدة، نبههم بعنف ولكن من دون جدوى، وصار عليه أن يبذل جهدا مضاعفا حتى يستطيع الثبات في مكانه من دون أن يلمسها.

لم يطل الوقت كثيرا حتى تصاعد من جديد لغط عند الشباك، ماذا جرى أيضا؟ لا يوجد قبض هذا اليوم! أجلوه؟! تعالت الفوضى ولم يستطع أن يعرف ما الأمر، تصاعد الصراخ وأصوات عالية، نعم! لقد أجلوا القبض، تحركت كتلة الكائنات فجأة بصورة فوضوية عشوائية – شاطت الطبخة وفاحت رائحة نتنة- تدافعت الكائنات في كل الاتجاهات، فارتطم بالسيدة أمامه، صرخت مستنكرة:

-يا ابن الكلب!

صفعته على وجهه بقوة، ثم ألحقت الصفعة بعدة صفعات فما لبثت الكتلة أن تباعدت تلقائيا فاسحة ميدانا صغيرا للمعركة بين السيدة التي تثأر لشرفها من مروان، راحت تشتمه وتضربه بمحفظتها ويديها وقدميها وهي في أوج غضبها على شرفها المهدور، تصاعدت أصوات من كل صوب:

- بعصها قليل الحيا!
- بعصها!
- بعصها.

صار بعضهم يصفق فرحا، وراح ميدان المعركة يتسع ويكبر ومروان يتراجع أمامها رافعا يديه فوق رأسه متحاشيا الأذى قدر ما يستطيع.

كان لا بد لباقي الرجال أصحاب الكرامة والشرف والنخوة، -وقد تبين أنهم معظمهم بهذه الصفات وأكثر من ذلك بكثير- كان لا بد لهم من أن يعينوا السيدة المبعوصة المهانة على الثأر لكرامتها، كان لا بد من إعادة شرفها إليها، ولو بأقل الإيمان، بتقريع أو صفعة على الوجه أو لكمة على المعدة أو رفسة قوية على الخصيتين أو الرأس، فالشرف غال ولا بد من الثأر لإرجاعه، في ذلك حسنة عند الله، وفيها الأجر إن شاء الله.

لم يطل الأمر بمروان حتى وقع على الأرض، مليئا بالكدمات، محاطا بآلامه والرفسات ما زالت تأتيه من كل صوب.

أخيرًا، تلاشت الأقدام من أمام عيني مروان الحشرة كما قالت له السيدة المبعوصة، صار الكوريدور فارغا تماما من الكائنات، بل أفرغ كما تفرغ طنجرة معكرونة فاسدة نتنة شاطت، وظل بين آلامه ينظر إلى شباك القبض ينظر إلى الورقة المكتوب عليها "تأجل قبض العمال المياومين".